

الشعر الأندلسي وموضوعاته المتطورة

شعر الطبيعة

د. تبارك حميد حسين

لم يات شعر الطبيعة مصاحباً لفتح الاندلس ، ولم ينبثق من فراغ ، بل نبتت جذوره واصوله في المشرق العربي وترعرع وازدهر في الاندلس؟

- لما خصها الله به من طبيعة ساحرة حتى اضحت أغنى بقاع المسلمين منظراً وافرهما جمالاً ، وقد تغنى بجمالها كل من حل بها وقد وصفها المقري في نوح الطيب قائلاً ((محاسنها لاتستوف بعبارة ، ومجاري فضلها لايشق غباره هذه البقعة من الارض الغنية بشتى المناظر تأسر الطرف وتستهوي الافئدة وتثير المشاعر والعواطف ، وتثري الاخيلة))
- كان لهذه الطبيعة الساحرة أثرها الكبير في خصب عقول الاندلسيين ورفاهية حسهم ، ورقة تصويرهم ، وسعة خيالهم ، فمارسوها صقلاً لموهبتهم الشعرية وشحداً لقدرتهم التخيلية واثباتاً لمقدرتهم الابداعية
- ان الحضارة في الاندلس قد بلغت في ربوع الاندلس مبلغاً رفيعاً فانتسعت فيها افاق العلوم والفنون والفلسفة أيضاً فقد ساعدت (الطبيعة بحضارتها الفاتنه) على نضج الشعر وحلاوته عند الاندلسيين ، فكان لمجالس الأوس والبهجة اثر كبير في تنوع اغراض الوصف ، كما وصفوا الحدائق والابنية وما فيها من صور وتمائيل وبرك
- فالطبيعة الاندلسية هي المعلم الاول الذي الهم الشعراء وهي الفيض الزاخر الذي استمدوا منه عباراتهم الرائعة التي مجدت ماامتازت به بلاد الاندلس من غيرها من البلدان حتى جعلها ابن خفاجة جنة الخلد

اذ قال :

إن للجنة بالأندلس

فسنا صحبتها من شنب

فإذا ما هبت ریح صبا

مجتلی عین وریا نفس

ودجا لیلتها من لعس

صحتُ : واشواقی الأندلس

ولاهمية موضوع الطبيعة في الادب الاندلسي فقد نشأت المعارضات بين الشعراء في وصف الطبيعة

منها معارضة بين ابي الحزم بن جهور (حاكم قرطبة) و ابن الرومي في ابياته التي فضل فيها النرجس قائلاً(7):-
للنرجس الفضل المبين وإن أبقى

آب وحاد عن الحقيقة حائذ

عارضها ابن جهور فقال في تفضيل الورد على سائر الازهار :
الورد أحسن ما رأيت عين وأز
كى ما سقى ماء السحاب الجائذ

خضعت نواوير الرياض لحسنه

فتذللتن تنقاد وهي شوارذ

وإذا تبدى الورد في أغصانه

ذلوا فذا ميت وهذا جاحذ

وإذا أتى وفد الربيع مبشراً

يطلوع صفحته فنعم الواقد

وإذا تعرى الورد من أوراقه

بقيت عوارفه فهن خوالذ

خصائص شعر الطبيعة وسماته الفنية

- ١- يعد شعر الطبيعة مرآة صادقة لطبيعة الاندلس وسحرها وجمالها، فالشعر دائما صدى للبيئة الاجتماعية كانت او طبيعية ، فان الشعر الاندلسي في هذا النطاق انما يعد صورة أمينة دقيقة انيقة لبيئة الاندلس.....
- 1- لنستمع لأبي الحسن بن نزار الذي تعلق بوذي (أشأت) فوصفه قائلاً (9) :-
وادي الأشأت يُهيج وجدي كلما

اذكرتُ ما أفضت بك النعماءُ
لله ظلك والهجير مسلطٌ
قد برّدت لفحاته الأنداءُ
والشمس ترغبُ أنْ تفوز بلحظةٍ
منه فتطرفُ طَرْفها الأفياءُ
والنهر يبسمُ بالحبابِ كأنه
سلخٌ نضته حية رقطاءُ

خصائص شعر الطبيعة وسماته الفنية

اصبح شعر الطبيعة يحل محل ابيات النسيب في المقدمات الشعرية في قصائد المديح وغيرها ، ولشدة تعلقهم بالطبيعة وهوسهم بها اخذوا يطعمون المرثي بشعر الطبيعة ايضاً

■ تداخل وصف الطبيعة واخذ يقترن في اكثر احواله بفن اخر من فنون الشعر الاندلسي لاسيما فنون الغزل والمتعة الحسية ، وسبق ان اشرنا الى تداخل الطبيعة والحب في شعر ابن زيدون ،فها هو الوزير ابو عامر بن مسلمة يسير على الدرب نفسه محاولاً ان يحجب الغزل وراء ابيات الطبيعة

وخميلة رقم الزمان أديمها

بمفضض ومقسم ومشوب

رشفت قبيل الصبح ريقه غمامة

رشف المحب مر اشف المحبوب

خصائص شعر الطبيعة وسماته الفنية

- بدأ شعر الطبيعة في الاندلس يخرج عن مألوف الشعر العربي من حيث الابتعاد عن القصيدة الا في حالات قليلة فيعمد الشاعر الى قول المقطوعة التي تستوعب طاقة خياله وتصور عطاء شاعريته غير عابئ بعدد الابيات او النظام التقليدي للقصيدة ، فلم يترك الشاعر لمحة من لمحات الطبيعة او زاوية من زواياها الا وطرقها برشاقة وذكاء(١١) حتى تجمعت لدينا ثروة ثمينة من شعر الطبيعة الاندلسي ، لغزارتها وضخامة نتاجها صنفت حسب موضوعاتها فخصصت الرياض في مجموعها ومااتصل بهم بقسم اطلق عليه الدكتور مصطفى الشكعة(١٢) اسم الروضيات وافرد للازاهير قسما اطلق عليه اسم (الزهريات) ، وللاثمار والبقول ومايتصل بها اسم (الثمريات)، والأنهار والبرك والسواقي اسم (المائيات) ، وجعل للابيات التي قيلت في وصف الثلج مكاناً متميزاً تحت اسم (الثلجيات).
- ٥-عُني شعرهم بتشخيص الطبيعة وتصويرها على نحو إنساني تملؤه الحركة والنشاط بدت الطبيعة في شعر الاندلس حية ناطقة عبر التشخيص والتجسيم ، ومتألقة تشاركهم الوجود، وتفرض وجودها في الشخصية الثقافية والادبية في الاندلس

يقول ابن هذيل

هبت لنا ريح الصِّبَا فتعانقت
وإذا تألّف في أعاليها الندى
وإذا التقت بالريّح لم تُبصر بها
فكان عُذرةً بينها تحكي لنا

فذكرتُ جيدك في العناقِ
مالت بأعناقٍ ولطفٍ قدودِ
إلا خدوداً تلتقي بخدودِ
صفة الخضوع وحالة المعمودِ

- اعتمد الشاعر الاندلسي في تلوينه وتنويعه لابعاد لوحته الفنية لشعر الطبيعة على الوان البيان من التشبيه والاستعارة مع شيء جميل من الصنعة التي تأتي ملائمة مع نغمات عذبة وموسيقى تنساب في لين ورقة .
- لافن الشعراء في وصف الطبيعة الطبيعية ، والصناعية فالطبيعة تمثل الاشجار والطيور والزهور والانهار والثلج والثمار ، وغيرها واما الطبيعة الصناعية فتمثلت عندهم بقصور الخلفاء ، والزخارف المعمارية ، والبرك وماشابه .
- لقد فاق شعراء الطبيعة في الاندلس ، اخوانهم المشاركة بغزارة المادة ودقة التصوير وروعة الابتكار ومزج الفنون المختلفة بالطبيعة ونجاحهم بالتعبير عن حبه لبلادهم وتفضيلها على ما عداها من البلدان فان وصف الطبيعة في الاندلس كان في الاغلب الاعم شغفاً بمحاسنها وتصويراً حسياً لمباهجها تموج به بين حين واخر خفقة من حياه ودفقة من عاطفة(١٥)
- ٩ انقسم الشعراء في وصفهم للطبيعة الاندلسية على قسمين القسم الاول : شعراء احبوا الطبيعة ووصفوها شكلاً ومضموناً بالاعتماد على حاسة معينة لاسيما حاسة البصر وتجسيم جمالها بالإتكاء على الخيال المجنح وصوره الخلابه دون الامتزاج فيها باحاسيسهم ومشاعرهم امتزاجاً تاماً ، القسم الثاني : شعراء إمتزجوا بالطبيعة إمتزاجاً تاماً عبر مشاركة وجدانية مؤثرة في النفوس بالاعتماد على معظم الحواس الفعالة كالبصر والسمع والشم واللمس وكل ما يعمق المشاركة الوجدانية ويثيرها ولنا في ابن خفاجة (جنان الاندلس) خير مثال على ذلك .